بعد العدوان على غزة، هل أخذنا العِبر ؟!

عبد الغني سلامة*

مقدمة

أثارت الحرب على غزة الكثير من القضايا والتداعيات، على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية، وغيرها. وهي جميعها قضايا مهمة، وتحتاج دراسات مستفيضة وتحليلات معمقة من قبل مراكز الأبحاث الأكاديمية، بموازاة عمليات التقييم والمكاشفة وتقدير الموقف وحتى المحاسبة، من قبل القيادة ومراكز صنع القرار، وأيضا على المستوى الفصائلي، وكذلك تحتاج إسهامات الكتّاب والمثقفين، لكي يقوموا بدورهم في هذا المجال.

فهل يُعقل أنه بمجرد سكوت المدافع، وتوقُّف القصف على غزة، أن نقوم مباشرة بإسدال ستائر النسيان على تلك الفترة العصيبة، وكأنها لم تكن ؟! وإذا تذكّرناها لا نتذكرها إلا بالقصائد وكلمات الرثاء، أو خطابات المديح للمقاومة ؟! ألا تستحق ثلاثة حروب متواصلة على القطاع وقفة تأمل ومراجعة شاملة ؟!

ولما كان من الصعب على أي كاتب الإحاطة بكل ما أفرزته الحرب، أو تناول كافة جوانبها؛ فسأتناول في هذه الدراسة، قدر المستطاع، جوانب معينة، كان لها دور مهم في تحديد طريقة تعاملنا مع الحرب نفسها، وفي تشكيل الوعي الشعبي، وصياغة مفردات خطابنا السياسي والإعلامي.

---

* باحث فلسطيني

١. صواريخ المقاومة

صواريخ المقاومة، واحدة من أكثر القضايا التي أثارت جدلا في الساحة الفلسطينية؛ فقد انقسمت الآراء بين من يراها بطولة وإنجازاً ومفخرة وطنية، ومن يراها "عبثية" ولا طائل من ورائها. ومن يراها إستراتيجية فاعلة ومؤثرة بإمكانها تحقيق توازن نسبي في موازين القوى، ومن يراها ليست ذات جدوى عسكرية، لبدائيتها ومحدودية قوتها التفجيرية وعدم دقة إصابتها. ومن يراها تعيد إنتاج صورة الفلسطيني الضحية المغلوب على أمره، واستبدالها بصورة الفلسطيني المقاوم الذي يلحق الأضرار الجسيمة بالعدو. مقابل من يراها تعطي صورة مشوهة وغير دقيقة للصراع، وتضلل الرأي العام العالمي على نحو يحرم الفلسطيني إمكانية التعاطف معه، خاصة بعد أن يرى العالم ما يمكن اعتباره توازنا بين جيشين متصارعين كلاهما يستخدم القصف العشوائي ويستهدف المدنيين في الطرف الثاني، وأن الفلسطيني لم يعد ضحية عدوان جيش غاشم بعد أن حقق نوعا من التكافؤ في أدوات الصراع.

من حيث المبدأ، لا خلاف على أنه من حق فصائل المقاومة، بل ومن واجبها الرد على العدوان الإسرائيلي، وإن كانت فصائل المقاومة حاليا ليس في جعبتها سوى الصواريخ محلية الصنع، وهذه الصواريخ غير دقيقة، وفاعليتها التدميرية محدودة جدا، ولا تقارَن مع صواريخ إسرائيل .. إلا أنها تطورت عن المرات السابقة، ومن الممكن أن تتطور أكثر مستقبلا .. وبالتالي لا يجوز أن نستخف بها .. ولكن لا نبالغ بتهويل تأثيرها؛ فأقصى ما يمكن أن تفعله هو أن تشفي غليل الفلسطينيين من ناحية، وأن تثير الرعب في قلوب الإسرائيليين من ناحية ثانية؛ وإن كان هذا مجرد إنجاز معنوي؛ إلا أنه يمثل ردا للكرامة الوطنية، ورفعاً للمعنويات. سيما وأنها البديل العسكري الوحيد المتاح ضمن الظروف الحالية، أي البديل عن السكوت.

وفي هذا السياق، يتابع الفلسطينيون بفرح أنباء سقوط الصواريخ على المدن الإسرائيلية، ليس تشفيا غرائزيا، ولا توقا لرؤية الأشلاء والدماء، بل بسبب تراكم المرارة والشعور بالظلم، إنه تعبير عن تراكم الأحزان على من فقدوهم، وعلى ما خسروه .. إنه فرح إنساني مشروع لمن استعاد جزءاً من كرامته، إنه فرح مشروع لكسرٍ جديد أصاب صورة الجيش الذي لا يُقهر ..

ولكن، من الواجب إخضاع أي وسيلة كفاح للتقييم، ومقاربة النتائج التي تحققها مع الأهداف المطلوبة، ومعرفة إلى أي مدى تخدم هذه الوسيلة أو تلك المصالح الوطنية العليا؛ فليس هناك وسيلة

مقدسة لا تقبل النقد، ولم يكن في يوم من الأيام هدف الكفاح الوطني إشفاء غليل الناس، ولا إرهاب العدو لمجرد الإرهاب .. للكفاح العسكري أهداف وطنية نبيلة، ليس من بينها القتل بهدف القتل، وللكفاح المسلح أيضاً محددات وضوابط سياسية وقانونية وعسكرية لا يجوز إغفالها. وفي الحروب التي شُنت على غزة جرى استخدام الصواريخ بصورة مكثفة .. وبالتالي على الخبراء العسكريين والإستراتيجيين تحليل النتائج التي حققتها الصواريخ بأسلوب علمي لا يخضع للعواطف والشعارات.

وعلينا أن ندرك أن الموضوع ليس في عدد الصواريخ ومدياتها، رغم أن هذا مهم جدا، ولكن الأهم منه هو طريقة إدارة الصراع؛ فمثلا كوريا الشمالية تمتلك صواريخ عابرة للقارات تهدد بها أمريكا، لكنها دولة فقيرة ويتهددها شبح المجاعات، وكذلك فقد امتلك صدام حسين صواريخ بالستية قصف بها تل أبيب، لكنها كانت السبب في الإطاحة بحكمه.

ومن جهة أخرى، يعتبر الكثيرون أن مجرد دوي صافرات الإنذار في المدن الإسرائيلية هو نصر تاريخي بحد ذاته، وأن مبيت السكان الإسرائيليين في الملاجئ، وصور رعبهم وتراكضهم هو تأكيد على هزيمة إسرائيل .. وفي الحقيقة، وإن كانت هذه اللقطات تعطي مادة زخمة للخطباء؛ إلا أنها لا تصنع نصرا، ولا تثْبت شيئاً سوى جاهزية "الجبهة الداخلية" الإسرائيلية، واستعدادها لحالات الطوارئ.

٢. أسر الجنود

وعلى غِرار الصواريخ، كان لموضوع أَسر جنود إسرائيليين مكان كبير من الاهتمام والجدال في الساحة الفلسطينية. ومنذ اليوم الأول للعدوان بدأ الناطقون باسم الفصائل يتوعدون الجيش الإسرائيلي بأسر جنوده، وقد صور البعض الوضع بأن عملية أسر جندي ستكون نقطة فاصلة في مجريات الصراع، وأخذت الجماهير تترقب باهتمام بالغ أي خبر عن أسر جندي. وبالفعل ما أن تناهت لمسامعها أنباء أسر أحد الجنود حتى خرجت في مسيرات شعبية عارمة تعبر عن فرحتها العميقة.

والآن وبعد أن انتهت الحرب، ومع كل التقدير لتضحيات المقاومة وبطولاتها، بإمكاننا طرح الأسئلة، وحتى الإجابة عليها بهدوء: هل أوقف أسر الجندي العدوان الإسرائيلي ؟ وهل يؤدي أسر جنود بالفعل إلى تحرير أسرى فلسطينيين ؟

من الواضح أن أسر جندي أو حتى مجموعة جنود لم يوقف الحرب، ولم يمنع أي هجوم إسرائيلي، ولم يخفف من حدته، هذا ما لمسناه عمليا من خلال جولات الصراع السابقة، بل إن أسر أي جندي كان بحد ذاته دافعا لتصعيد العدوان، وأحيانا سببا لبدء الحرب.

فمثلاً، عندما قام حزب الله بأسر جنديين إسرائيليين في ٢٠٠٦، شنت إسرائيل على الفور حربا شعواء على لبنان، راح ضحيتها آلاف القتلى والجرحى، ومئات آلاف المهجرين، وخلفت وراءها دمارا هائلا في البيوت والعمران والبنى التحتية. وبعد أن انتهت الحرب، أعلن "نصر الله" أنه لو كان يعلم بأن ردة فعل إسرائيل ستكون على هذه الدرجة من العنف لما أقدم على عملية الخطف. وكذلك كان خطف الجندي "شاليت"، في حزيران ٢٠٠٦، سببا وذريعة لحرب مدمرة شنتها إسرائيل عقب العملية مباشرة، ثم أتبعتها بحربين (٢٠٠٨، ٢٠١٢) تحت ذريعة تحرير الجندي الأسير، راح ضحيتها آلاف القتلى والجرحى من الفلسطينيين فضلا عن الدمار الهائل وتشديد الحصار على القطاع.

وفوق ذلك كانت إسرائيل تعمد إلى إعادة اعتقال الأسرى الذين تفرج عنهم عبر صفقات التبادل، أو تأسر أضعافهم. وإزاء هذه الحقائق يجدر بنا التساؤل: هل تحرير مئات الأسرى يعادل هذا الثمن الباهظ ؟ مع تأكيدنا على أهمية تحرير الأسرى وشرعيته وعدالته. لكنها أسئلة مشروعة وبحاجة لإجابات صادقة وموضوعية تأخذ مصالح الشعب والقضية بالدرجة الأولى، لا مصالح الحزب أو الفصيل. فربما قتل الجندي، مثلا، أفضل من الناحية العسكرية والسياسية، وهو بالتأكيد أقل كلفة من أسره.

٣. توازن الرعب، بين الحقيقة والمجاز

وفي الحرب الأخيرة، كما في الحروب السابقة كثُرَ استخدام مصطلح "توازن الرعب"، وصار من أكثر المصطلحات رواجا، وأكثرها غواية وإرضاءً للجمهور، حتى بات في مخيلة البعض كما لو أنه الحقيقة التي ستحسم الصراع.

الشعب الفلسطيني الذي عجز – لأسباب موضوعية – عن تحقيق توازن استراتيجي عسكري مع إسرائيل، يسعى عوضا عن ذلك إلى تحقيق توازن "معنوي". فمثلا، في السنوات الأولى من انتفاضة الأقصى، عندما كانت المدن الإسرائيلية تشهد عمليات تفجيرية، كان مبرر الجهات الفلسطينية التي تنفذ هذه العمليات هو تحقيق توازن الرعب. وفي الحروب التي شنتها إسرائيل على غزة، تكررت

الصيغة، ولكن بصورة مختلفة؛ فقد حلت الصواريخ مكان الأحزمة الناسفة.

ولكن هذا المصطلح، بمنظار العقل، مصطلح غير دقيق؛ وقد برهنت النتائج النهائية أن هذا المفهوم لم يكن ليحقق أي توازن للرعب بين الطرفين؛ فإزاء العمليات التفجيرية داخل الخط الأخضر كان السكان الإسرائيليون قد بدأوا يتكيفون مع الواقع الأمني الجديد. وكذلك بالنسبة للصواريخ، فالإسرائيليون لديهم الاستعدادات المادية للتعامل مع ظروف الخوف التي تسببها الصواريخ، (خلافا للفلسطينيين)، فما أن يسمع السكان صافرات الإنذار حتى يهرعوا إلى الملاجئ لمدة لا تتجاوز الساعة، ثم يعودوا إلى حياتهم الطبيعية.

وعلينا أن ندرك أيضا أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع عسكري؛ بل إن إسرائيل في الأساس دولة عسكرية، تعتاش على الحروب، ودورها الوظيفي قائم على الحرب .. لكن ما هو موجود في أذهاننا أن اليهود هم مجرد سياح، وسكان عابرين، جاؤوا إلى "إسرائيل" التي ستوفر لهم الأمن والرفاهية، وإذا لم تكن كذلك، فإنهم سيغادرونها، وسيعودون إلى أوطانهم الأصلية .. وهذا إن كان ينطبق على فئة معينة منهم، إلا أنه لا ينطبق على الغالبية العظمى، وعلينا أن ندرك هذه الحقائق، لأن بناء الإستراتيجيات القائمة على التصورات الخاطئة سيقود إلى الفشل لا محالة ..

الرعب الذي يصيب السكان في أي مكان في العالم إذا ما تعرضوا للقصف هو حالة إنسانية طبيعية، وعلينا أن نتذكر أن الإسرائيليين الذين يركضون خوفا من صواريخ المقاومة سيجدون ملاجئ تحميهم؛ بينما العائلات الفلسطينية التي تتعرض للقصف الإسرائيلي تسكن أكثرها في أكواخ من الصفيح، وليس لهم أية ملاجئ، وبالتالي سيصابون أيضا بالذعر، ليس لنقص في شجاعتهم؛ بل لأنهم بشر.

البعض وقع في فخ الدعاية الصهيونية التي كانت تروج صورا لسكان إسرائيليين "مدنيين" وهم في حالة ذعر، مع أنه من المفترض في حالات الحروب أن تسعى الدولة إلى إظهار شجاعة مواطنيها، من أجل تماسك الجبهة الداخلية، ولكن العكس كان يحصل في إسرائيل !! والسبب وراء نشرها هذه الصور التي تنطوي عل قدر من المبالغة، هو التغطية والتمويه على الجرائم الإسرائيلية بحق المدنيين في غزة، وإظهار إسرائيل في صورة الضحية الواقعة تحت "إرهاب" حماس وصواريخها، وبالتالي تكسب الدعم والتعاطف الدولي. وإمعانا في ذلك كانت قيادة الجبهة الداخلية الإسرائيلية تتعمد إطلاق صافرات الإنذار في أي مدينة حتى لو كانت لا تتعرض لخطر حقيقي، ومع علمها بتواضع القوة التفجيرية للصواريخ الفلسطينية، لكنها كانت تفعل ذلك لسبب إضافي؛ وهو إبقاء

الجبهة الداخلية في حالة شعور بخطر العدو الخارجي، لأن هذا الإحساس (المخيف) هو العامل الوحيد القادر على تذويب كافة تناقضات المجتمع الإسرائيلي وصهرها في بوتقة موحدة، وتصدير أزماته الداخلية للخارج، أو تأجيل بلورتها وخروجها أطول فترة ممكنة، وإسكات قوى المعارضة، ودفع الجمهور نحو اليمين أكثر فأكثر، ونحو مزيد من التطرف.

صحيح أن الخسائر التي أوقعها القصف الصهيوني بالفلسطينيين أكبر بكثير ماديا وبشريا من الخسائر التي لحقت بإسرائيل؛ إلا أن الخسائر الإسرائيلية على ضآلتها تعتبر فادحة، على الأقل من الناحية المعنوية، حيث أن "مفاجأة" الصواريخ التي سقطت في تل أبيب والقدس ستظل جرحا نرجسيا لن يندمل سريعاً.

٤. هزيمة، أم نصر ؟

إحدى عناوين الخلاف في الساحة الفلسطينية هو اعتبار نتائج العدوان على غزة نصرا، أو هزيمة. هذا الموضوع بالذات كان من المفترض أن يكون مجال عمل لجان وطنية متخصصة، تقوم بتقييم الوضع بموضوعية، وبرؤية نقدية ناضجة.

لكن ما حدث فعليا وللأسف، شيوع نوع من الخطاب الذي يصادر الرأي الآخر، ويحكم عليه مسبقا بتهم جاهزة، فمن يرون أن ما تحقق هو نصر مؤزر ينظرون لكل من يشككون بهذا النصر، أو حتى يناقشونه على أنهم ليسوا وطنيين، وأنهم طابور خامس .. بل ويحكمون على نواياهم ومشاعرهم؛ فإذا تحدث أحد عن الشهداء والضحايا، يصفونه بأنه "يتباكى"، أي يدّعي الحزن، وأنه ليس صادقا في مشاعره.

وهذا النوع من الخطاب هو في حقيقته ضرب من الإرهاب الفكري، يريد بأسلوب ديماغوجي إثارة زوبعة من الشعارات الرنانة لتغطي على حقيقة الموقف، وتمنع رؤيته بوضوح، يريد تثبيت روايته، وطبع صورة معينة في وجدان وعقول الناس، تجعل حتى من نقاشها خروجا عن الوطنية !!

في الحرب على غزة، وتحديد المنهزم والمنتصر، سنجد أنه يصعب القول بأن إسرائيل انتصرت. رغم الخسائر الفادحة في الأرواح والممتلكات التي ألحقتها بالجانب الفلسطيني، ورغم تفوقها العسكري؛ فكل المباني التي قصفتها وهدمتها تقع في بيئة مدنية لا تمتلك أي مضادات للطائرات،

وبين الجانبين خلل فادح في موازين القوى، وغالبية ضحايا الهجمات الإسرائيلية هم من الأطفال والنساء والشيوخ والمدنيين، وليس في هذا أي بطولة، ولا يمكن اعتباره نصرا بأي مقياس، بل هو هزيمة أخلاقية.

وفي المقابل، يصعب التسليم بأن المقاومة ألحقت هزيمة بإسرائيل، أو أنها أنجزت نصرا تاريخيا .. وهذا ليس بسبب التفاوت الكبير في أعداد الضحايا وحجم الخسائر على الجانبين، بل أيضا في شروط وكيفية وقف الحرب، وصيغة التفاهمات والاتفاقيات التي أُبرمت. وقد دأبت حركات المقاومة على اعتبار أي مواجهة مع جيش الاحتلال نصرا مؤزرا لها، وهزيمة لإسرائيل .. فإذا كانت كل هذه الهزائم قد لحقت بإسرائيل، فكيف نفسر تفاقم بؤس واقعنا وضعفنا، في مقابل قوة إسرائيل المتزايدة، وتفوقها على كافة المستويات، وزيادة غطرستها وعدوانيتها !!

كما يصعب القول أن المقاومة قد انهزمت؛ بل أنها انتصرت أخلاقيا، وأبلت بلاء حسنا. فلا حماس ولا غيرها كان لديه وهم تدمير إسرائيل وهزيمتها من خلال هذه الحرب غير المتكافئة، لكن كل حرب لا أخلاقية يخوضها جيش الاحتلال تكشف للعالم حقيقة هذا الكيان، وتقرب من نهايته. ويكفي فصائل المقاومة أنها خرجت من تحت الردم، وطورت منظومتها الصاروخية، وفاجأت العدو، وقصفت مدنا إسرائيلية طالما اعتقدت أنها آمنة، و كبدت الجيش الإسرائيلي خسائر مهمة في الحرب البرية. وفي هذه الدلالات الرمزية قيمة كبيرة، ستغير إلى حد ما قواعد الاشتباك، وستفرض معادلات جديدة، يمكن البناء عليها وتطويرها في المستقبل.

ومن المهم أيضا أن نرى الصلة الوثيقة بين المقاومة المسلحة في غزة، وبين حالة الغضب الشعبي في مدن ومخيمات الضفة الغربية، حيث أسقط هذا النهوض الشعبي كل الحسابات التي راهنت على استكانة الفلسطينيين، وعلى تثبيت الانقسام، وأيضا من المهم أن نرى الفعل السياسي والنشاط الدبلوماسي في المحافل العربية والدولية الذي كان له دور هام في إنهاء الحرب، والتوصل إلى تفاهمات وقف إطلاق النار. والأهم من ذلك حالة التوحد والانسجام في الموقف السياسي بين كافة الفصائل والقيادة.

صمود الناس في غزة، حتى لو رأى البعض أنه خيار لا مفر منه، وممر إجباري وحيد، ومسألة حتمية ولم تعط لهم فرصة الاختيار بين قبول الحرب أو رفضها .. إلا أنه لا يمكن النظر له من زاوية الإشفاق الإنساني وحسب، مهما بلغت قساوة المشاهد، بقدر ما يتوجب احترام الجانب البطولي

فيه .. ورؤيته بمنظار التمسك بالحياة, وبالكرامة، واحتضان المقاومة، فالمدنيون هم أبطال هذه المواجهة، وهم الذين دفعوا فاتورتها الباهظة .. وهم الذين سينطلقون من تحت الركام، وسيبنون مستقبلهم الذي دفعوا حاضرهم ثمنا له.

٥. التضحية المطلوبة، ومشاركة المدنيين

ومن المواضيع الهامة التي تفاعلت وبشدة أثناء الحرب، موضوع ثمن التضحية المطلوبة. وأمام هذا الموضوع الشائك برزت كالعادة، وجهتا نظر، وهما إلى حد ما متناقضتان: الأولى تقول أن قطرة دم فلسطيني أهم وأغلى من أي إنجاز سياسي. وأصحاب هذا الرأي لا يقولون أنهم لا يريدون التضحية، ولكن حسب رأيهم؛ فإن الهدف من المقاومة هو تحقيق الإنجاز السياسي بأقل قدر ممكن من التضحيات، وتجنيب الشعب الخسائر بالأرواح كلما كان ذلك ممكنا، أي تبني الوسائل الكفاحية التي لا ينجم عنها خسائر باهظة. والثانية تقول أن الشعوب لا تتحرر إلا بآلاف الشهداء والدماء الغزيرة، وأن الإنجازات السياسية الكبرى لا تتحقق إلا بالتضحيات الكبرى.

وجهتا النظر تثيران الجدل، حيث كل فريق يقدم أطروحته مشفوعة بأمثلة من تاريخ الثورات والشعوب التي تحررت. ولا شك أن كلتا الأطروحتين تستحقان الاحترام؛ ولكن لماذا في كل مرة يحصر العقل العربي تفكيره بخيار واحد وبطريقة حادة وحاسمة ؟

وكما هو معروف؛ فقد دفعت غزة ثمنا باهظا من جراء العدوان المتكرر عليها، ولذلك يطغى الجدال في هذا الموضوع أكثر من غيره على المشهد السياسي، خاصة إزاء عروض الهدنة والتهدئة. ودون الخوض في التفاصيل، إذا كانت نتيجة تلك التضحيات الجسيمة رفع الحصار عن غزة بشكل كامل، مرة أخيرة وإلى الأبد، وضمان عدم تكرار العدوان؛ فإن هذا الهدف يستحق التضحية. أما إذا كان قبول التهدئة أو رفضها انعكاسا لتجاذبات سياسية، وصراعات إقليمية، أو لتسجيل نقاط لصالح حزب معين؛ فإن هذا نوعٌ من المقامرة بأرواح الناس لحسابات رخيصة، والتاريخ لن يرحم من يتاجر بآلام الشعب.

نقطة الخلاف المركزية في هذا الموضوع تحديدا، ليست مشروعية المقاومة من حيث المبدأ، ولا حتى أدواتها؛ بل هي كيفية استخدام هذه الأدوات، من حيث المكان والتوقيت، أي بكلام أوضح

حول استخدام المرافق العامة والأماكن السكنية كمنصات للصواريخ، أو للأنفاق، وبالتالي إعطاء إسرائيل ذريعة لقصفها، الأمر الذي نجم عنه مضاعفة أعداد القتلى والجرحى في صفوف المدنيين، ومضاعفة حجم الدمار.

وإذا راجعنا تاريخ الثورة الفلسطينية منذ انطلاقتها، وفي كل المعارك والعمليات العسكرية التي نفذتها لوجدنا أن ما قامت به حماس قامت به من قبلها فتح وبقية فصائل الثورة. مما كان يستدعي رد فعل إسرائيلي استهدف القرى اللبنانية.

في المقابل، رأى البعض أن حماس باستخدامها المرافق العامة في الأعمال العسكرية، وبناء الأنفاق تحت الأحياء السكنية وإطلاق الصواريخ من بين البيوت كان انعكاسا لمنهجها في إدارة الصراع، وهو المنهج المستعد لخوض أي مغامرة، دون أن يأخذ بعين الاعتبار مصالح الجماهير ومتطلباتهم الحياتية، ويغلِّب مصلحة الحركة على المصلحة الوطنية، ويرى في الموت مجرد استشهاد في سبيل قضية نبيلة، ولا مانع لديه من سقوط أعداد كبيرة من الضحايا طالما ذلك يمنحها النصر الذي تطمح إليه، وهو عبارة عن تثبيت حكمها في غزة، ويرى أصحاب هذا الرأي أن حماس في بعض الأحيان كانت تخوض معارك إعلامية وتنجر إلى مواجهات غير محسوبة لتحقق من خلالها أهدافا دعائية لتحسن من صورتها، ولكن على حساب السكان المدنين، ويضيفون: بأن حماس غير مستعدة لتبني أشكال أخرى من المقاومة لا تتناسب مع أيديولوجيتها، حتى لو كانت تلك الأشكال تحقق نتائج سياسية بتضحيات أقل بكثير، مثل المقاومة الشعبية، ما يعني أن حماس تناضل من أجل أيديولوجيتها وعلى هديها، بغض النظر عن المصلحة الوطنية.

وإزاء ما جرى من مذابح في غزة، سعى البعض لتحميل حماس مسؤولية الخسائر البشرية والدمار الهائل، بحجة أن الصواريخ هي التي جرّت إسرائيل للحرب، وأن حماس استخدمت الناس دروعا بشرية .. وباعتقادي أن مثل هذه الأقاويل إنما تصب مباشرة في خدمة إسرائيل، وتبرؤها مسبقا من مسؤولياتها القانونية عن المذابح التي اقترفتها في غزة، وهذا ضرب من الانتهازية السياسية، والكيل بمكيالين. إسرائيل هي المسؤول الأول والأخير عن كل ما جرى، هي التي بدأت العدوان، وهي التي قتلت ودمرت، وهي التي تتحمل كل تبعات الحرب السياسية والأخلاقية؛ ولا يتحمل أي طرف فلسطيني المسؤولية؛ لا قوى المقاومة، ولا قيادة السلطة؛ فقوى المقاومة على أرضها وبين ناسها، تمارس حقها المشروع في الدفاع عن نفسها، وعن شعبها.

وحتى لو تعذر علينا حسم الجدل لصالح رؤية معينة؛ فإن هذا لا يعني أبدا التسليم المطلق بصحة هذه المقولات؛ إذ أن المقاومة بحد ذاتها ليست هدفا، ولا صنما مقدسا، وإذا علمنا أن هذا الأسلوب، أو تلك الوسيلة تسبب أضرارا وخسائر أكثر من غيرها، فمن المنطقي، بل من الواجب إخضاعها للمراجعة والتقييم.

الخلاصة

جاء العدوان الإسرائيلي الأخير تواصلاً مع الحروب السابقة التي شنتها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني لتحقيق هدفها الأساسي المتمثل بإضعاف الفلسطينيين، وتدمير مقومات بقائهم وتصفية قضيتهم. وبالإضافة لذلك عمدت إسرائيل لتحقيق جملة من الأهداف الإستراتيجية وأهمها: عزل قطاع غزة عن الضفة، وحصر القضية الفلسطينية بمطالب غزة (وهي مطالب حياتية أساسية مشروعة)، ومواصلة سياسات الاستيطان والتهويد وفرض الوقائع على الأرض، والحيلولة دون قيام دولة فلسطينية؛ إلى جانب أهداف سياسية تكتيكية أخرى في مقدمتها إسقاط حكومة التوافق الوطني، وتكريس الانفصال. وبالطبع إلى جانب الأهداف الأمنية التي حددتها بتدمير شبكات الأنفاق، ووقف صواريخ المقاومة من قطاع غزة. ولم يتحدث أي قائد إسرائيلي عن احتلال القطاع، أو إسقاط سلطة حماس.

وبالنسبة لفصائل المقاومة، فهي في الحروب الثلاثة الأخيرة على القطاع، كانت تخوض معارك دفاعية؛ حيث إسرائيل هي المبادرة بالحرب في كل مرة، وهذا يعني أن فصائل المقاومة كانت تجد نفسها أمام واقع مفروض عليها فرضا، وبالتالي ستحدد أهدافها السياسية ضمن هذا الإطار، وهي في الحرب الأخيرة كما عبرت عنها حركة حماس: فتح معبر رفح البري بشكل نهائي، وإنهاء الحصار، ووقف العدوان والتوقف عن سياسة الاغتيالات، بالإضافة للميناء والمطار والمنطقة العازلة ومساحة الصيد البحري. ولم يطلب أي قائد حمساوي من العرب مددا عسكريا أو سلاحا، ولم يتحدث أحد عن مطالب سياسية لها علاقة بقضايا القدس والمستوطنات والجدار وغيرها.

بمعنى أدق أنه، ومهما وصلت الأمور بين الطرفين فإن ذلك يدخل في إطار تحسين الوضع العسكري لتحسين شروط التهدئة فقط. ومع ذلك، فإن فصائل المقاومة في العدوان الأخير على غزة استبسلت

في الدفاع عن النفس، وقدمت صورة بطولية استحقت احترام الشعب الفلسطيني.

لكن أداء المقاومة البطولي على الأرض وفي الميدان لا يعني بالضرورة أن أداء القيادة السياسية بنفس المستوى، فقد سعت القيادة السياسية لفصائل المقاومة (وبالذات حماس) لفرض نوع من الخلط في الوجدان والعقل الجمعي بين صورة المقاوم البطل وشجاعته في الميدان، وبين صورة القائد السياسي (الذي يريد قطف ثمار الحرب لصالح مكانة حزبه). فصار أي انتقاد لأداء القيادة السياسي يواجه بالتذكير ببطولات المقاومين على الأرض أيام الحرب.

ومع ذلك، فإن تحديد أهداف الحرب من قبل أي طرف لا يعني بالضرورة أنه قادر على تحقيقها. وفي العدوان الأخير كان واضحا أن إسرائيل بالرغم من استخدامها المفرط للقوة العسكرية إلا أنها عجزت عن فرض إرادتها بالكامل على الطرف الفلسطيني، ومع حجم الدمار والخسائر الكبيرة التي تكبدها القطاع؛ إلا أن الفلسطينيين ما زال بمقدورهم تغيير الواقع السياسي، وفرض الكثير من الأمور على الطرف الآخر، أو على الأقل إفشال مخططه، خاصة فيما يتعلق بتثبيت الانقسام.

المطلوب من فتح وحماس أولاً طي صفحة الانقسام مرة أخيرة وللأبد، وتمكين حكومة التوافق من المضي قدما في مشاريع إعمار غزة، لأن غزة بالفعل تحتاج لهدنة طويلة، حتى تلتقط أنفاسها، وتستعيد عافيتها. والمطلوب من فتح والفصائل الأخرى والسلطة والجماهير في الضفة الغربية خوض حرب استنزاف ضد المستوطنين، وتصعيد المقاومة الشعبية وتعميمها، مع استمرار المقاطعة الاقتصادية، إلى جانب حملة منظمة في المحاكم الدولية لمحاسبة إسرائيل، وحملة سياسية تركز على العلاقات الثنائية مع الدول الصديقة، وهجمة دبلوماسية وإعلامية في المحافل والمنظمات الدولية، وصولا إلى محاصرة إسرائيل وعزلها، كما حدث لنظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا.